ومرت المفاوضات مع اسرائيل بين كر وفر. وجاءت السفارة واحاطها الحرس المدجج بالسلاح، والمجموعات الشرطية المعسكرة في الشوارع القريبة، بالخوذات والسنكات؛ وموجات من الاسرائيليين في غزو سياحي. لم يعد الموضوع فقط إبطال الحرب، وإنما اصبحوا في القاهرة... وكذلك لا شك أن الهجوم على المفاعل العراقي وضرب بيروت من الجو أحدث اشمئزازاً وضيقاً.

وترتفع الأسعار، ويختفي الخبز أياماً في بعض الأحيان. فلم يأت السلام بالرخاء المأمول.

لقد خابت الآمال، وزاد السخط على السادات والمجموعة الحاكمة، فصاروا يُشتمون علناً. ولكن قليلين جداً هم الذين باتوا يقولون بضرورة الحرب مع اسرائيل. وإذا كان البعض يرى سحب وإلغاء عمليات التطبيع، فليس في ربط مع العودة إلى ما قبل «المبادرة»، بل بما يمكن أن يكون نوعاً من فك الاشتباك: «نحن هنا وهم هناك، وليس لكل منا دعوى بالآخر».

هل كان للدعاية الوطنية بألوانها (من الجماعات الإسلامية إلى ابراهيم شكري والتجمع، إلى الاحزاب الشيوعية السرية) تأثير على وضع الرأي العام المصري كما كان في أيلول (سبتمبر) الماضي؟ نعم، وبكل تأكيد. وفي فترة الشهور السابقة لحملة الاعتقالات الكبرى الأولى، كان يلاحظ انتعاش في نشاط المثقفين المعارضين، فرادى ومتجمعين في هيئات. ولكن من الواضح تماماً أن شعارات ١٩٥٦ وهتافات ١٩٦٧ وبكائيات ١٩٧٠ الحماسية لم تكن في بال الشارع المصري.

٢ ــ اصول سابقة واضافات جديدة

دفعنا حبنا العميق للشعب المصري ــ وما اعظمه من شعب، حقاً! ــ إلى ان ننظر إلى مصر أحياناً نظرة تخطيطية مبتسرة؛ فرأينا مصرَيْن ليس بينهما أي علاقة أو اتصال أو تأثير متبادل: هنا «الشعب العامل»، وهو الوطني الخالص، والفدائي بلا حدود والواعي بلا اخف غشاوة، و ــ في كلمة ــ الكامل كما يمكن أن نتصور الكمال. وهناك كبار الملاك «الاقطاعيون»، والرأسماليون، والبيروقراطيون، وعملاء الأمبريالية الخ، أي الخيانة والرجعية.

ولذلك يصاب بعضنا بصدمة عندما يحدث ما لم يكن يتوقعه ويعتبره تراجعاً وسقطة.

والواقع انه، لو كان الأمر على هذا المنوال، لكانت المشكلة السياسية الرئيسية قد انتهت في مصر، ولم تكن لتبقى الا نقط تتعلق «بتقنية» الثورة، إذا جاز التعبير: تحديد ساعة الصفر وأشكال الانتفاضة، الخ. فالهدف النهائي كله للنضال السياسي يمكن تلخيصه، وان كان بشكل مبسط، في أحداث مثل ذلك الاستقطاب الواضح الصارم. فرغم أن لواء التحرر والتقدم والاشتراكية معقود للطبقة الكادحة المصرية **في التحليل الأخير**، إلا أن ثمة شبكة منسوجة من حجم هائل من الأفكار والقيم والتقاليد والمصالح الحقيقية